قصر المتكبرين

إعداد

أشرف عبد الرءوف قدح

بسم الله الرحمن الرحيم

خلق الله – عز وجل – الإنسان ، ووهبه نعماً كثيرة ، وسخَّر له ما في الكون . ومن الناس من يؤمن بالله الواحد ، ويشكره على نعمه الكثيرة ، ويتبع أوامره ، ويبتعد عما نهى عنه ؛ فيكون خَيِّراَ صالحاً . وهؤلاء هم المؤمنون .

ومن الناس من يسلك طريق الشيطان ؛ فيعصي الله ، ولا يتقيه . ويزين له الشيطان سوء عمله، فيتَّبع هواه ، ويضل عن طريق الحق ، ويحسب أنه يحسن صُنْعاً بفعله هذا ؛ فيكون جزاؤه الهلاك ، ويجعله الله عبرة للناس ، وهؤلاء هم المتكبرون .

وفي هذا الكتاب ، نتعرف على نماذج من قصص المتكبرين ، الذين لم يطيعوا أوامر الله ؛ لننظر كيف كانت نهايتهم ، وماذا فعل الله بهم جزاء تكبرهم .

* * *

أصحاب العماد

كان أصحاب العماد قوماً من العرب ، منحهم الله القوة ، ورزقهم مالاً وفيراً .

وكانوا يسكنون في الصحراء ، في بيوت عظيمة البنيان ؛ صنعوا لها أعمدة قوية متينة . وبرغم هذه النعم الكثيرة ، فإنهم كانوا مغرورين ، وكانوا يتباهون بقوتهم ، ويتفاخرون بسلطانهم ، (وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً) [فصلت : ١٥] . وكانوا يعبدون الأصنام ، فأرسل الله إليهم نبيه هوداً – عليه السلام – ؛ ليذكِّرهم بالله ، ويوجههم إلى الإيمان به ، ويحذرهم من عبادة الأصنام التي لا تنفع ولا تضر . ولكنهم لم يقبلوا نصحه ، واتهموه بالجنون ، فحذرهم من عذاب الله ، فلم يهتموا بتحذيره .

وذات يوم ، رأوا سحابة كثيفة في السماء ، ففرحوا وظنوا أنها تحمل لهم مطراً يُنبت الزروع والثمار ، ولم يدركوا أن فيها هلاكهم ، وأنها عذاب سلَّطه الله – عز وجل – عليهم .

وفجأة ، تحولت السحابة إلى ريح مدمرة ، استمرت ثمانية أيام ، فأهلكت الكافرين . [القرطبي : تفسير سورة الأحقاف] .

* * *

الغارقون

في قديم الزمان . . كان يعيش خمسة رجال من الصالحين ، هم : وَد ، وسُواع ، ويَغُوث ، ويَعُوق ، ونَسْر . وكان الناس يحبونهم حباً كبيراً ، فلما ماتوا حزن الناس عليهم حزناً شديداً ، فصنعوا لهم تماثيل من الأخشاب والحجارة ، ليتذكروهم .

وبعد مرور سنوات طويلة ، وسوس الشيطان للناس أن يعبدوا هذه التماثيل والأصنام ، فعبدوها ، حتى أرسل الله إليهم نوحاً – عليه السلام – ؛ ليردهم إلى طريق الإيمان بالله وحده ، ولكنهم رفضوا دعوته . ولم ييأس نوح ، وظل يدعوهم تسعمائة وخمسين عاماً كاملة . وبعد هذه السنوات ، لم يؤمن معه إلا عدد قليل ، وأوحى الله إلى نوح أنه لن يؤمن إلا مَنْ قد آمن من قبل ، فلما تأكد من أنهم مصرُّون على الكفر ؛ دعا الله قائلاً : (رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً ، إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً) [نوح : ٢٦ – ٢٧] .

فتقبَّل الله دعوته ، وأمره أن يصنع سفينة ، تحمله هو ومن آمن معه ، عندما يرسل الله الطوفان ليغرقهم .

وبدأ نوح يصنع السفينة ، وكان الكفار يسخرون من نوح كلما رأوه ، ولكنه كان يعرف أن الله سينصره ، فكان يقول : (إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ) [هود : ٣٨ – ٣٩] .

وأخبر الله نوحاً بموعد الطوفان ، وأخبره بعلامة ذلك ؛ وهي خروج الماء من التَّنُّور (الفرن) . وقبل الموعد ، جمع نوح المؤمنين ، وأخذهم إلى سفينة النجاة ، وأخذ معه زوجين من كل نوع من الطيور والحيوانات . ثم تفجرت المياه من الأرض بقوة ، وأمطرت السماء ماء غزيراً حتى امتلأت الأرض بالماء ، وأصبحت الأمواج كالجبال . ومن بين الأمواج العالية ، لمح نوح ابنه الذي لم يؤمن ، فدعاه لكي يركب السفينة ، ولكن الابن العاق ظل متمسكاً بعناده حتى غطَّاه الموج ، وغرق مع المتكبرين . [القرطبي : تفسير سورتي نوح وهود] .

* * *

أعداء الناقة

كان أهل ثمود يعبدون الأصنام ، فأرسل الله إليهم نبيه صالحاً – عليه السلام – ليدعوهم إلى عبادة الله ، فاستهزءوا به ، وطلبوا منه أن يأتيهم بمعجزة تكون دليلاً على صدق رسالته . وحددوا نوع هذه المعجزة ؛ فطلبوا منه أن يُخرج لهم ناقة من بين الصخور .

فأجاب الله – عز وجل – مطلبهم ؛ فانشقت الصخور ، وخرجت منها ناقة ضخمة . ولكنهم لم يؤمنوا ، واتهموا صالحاً بأنه ساحر ، وتمسكوا بعبادة أصنامهم . ثم أمر الله – عز وجل – الناس أن يتركوا ماء البئر للناقة يوماً كاملاً لا يقترب منه أحد ، على أن يجعلوا اليوم التالي لهم يأخذون ما يكفيهم من ماء البئر ، وفي مقابل ذلك يشربون من اللبن الغزير الذي تنتجه الناقة .

وكان صالح – عليه السلام – قد حذرهم من التعرض للناقة بسوء حتى لا يصيبهم العذاب الأليم ، ولكنهم اتفقوا – بعد فترة – على التخلص من الناقة ، وراقبوها في ذهابها وإيابها ، وقتلوها .

ثم ذهبوا إلى صالح وسخروا منه ، واستعجلوا العذاب الذي توعدهم به . فأخبرهم بأن هلاكهم سيكون بعد ثلاثة أيام ؛ فاستهزءوا به . وفي صباح اليوم الرابع ، جاءتهم الصيحة ، واهتزت الأرض من تحتهم بقوة ، فهلكوا . [القرطبي : تفسير سورة هود] .

* * *

أعداء الفطرة السليمة

كان أهل " سدوم " من أفجر الناس وأشدهم كفراً ؛ فكانوا يسرقون ، ولا يحفظون الأمانة ، كما كانوا يحبون المعاصي ، ويرتكبون الفواحش .

فأرسل اللهم إليهم نبيه لوطاً – عليه السلام – لينصحهم ، ويرشدهم إلى الابتعاد عن فعل المعاصي وارتكاب الفواحش ، فلم يستجيبوا له ، وهددوه بالطرد من البلاد هو ومَنْ معه من المؤمنين.

ولم تأكد لوط من كفر قومه ، علم أن الله سيعذبهم ، وطلب منه – سبحانه – النجاة ؛ فأرسل الله – عز وجل – ملائكته ليبشروه بالنجاة ، وبنزول العذاب بالفَجَرة المتكبرين . فاستقبلهم لوط في بيته ، وعلم منهم أنهم جاءوا ليُهلكوا المتكبرين المفسدين .

وعلم أهل سدوم بأن هناك رجالاً وجوههم جميلة في بيت لوط ، فأرادوا أن يفعلوا فيهم الفاحشة ؛ فحاول لوط أن يردهم ، وعرض عليهم أن يزوجهم من نساء قومه ، وأراد أن يصرفهم عن حب الرجال ، لكنهم رفضوا .

فلما رأت الملائكة ذلك ، أخبروه بأن القوم لن يقدروا عليهم ، وبأن العذاب سوف يأتيهم في الصباح ، وأمرت الملائكة لوطاً بأن يأخذ أهله – إلا زوجته – ويخرج بهم من البلدة ، وبألاَّ ينظروا إلى الخلف حينما يسمعون صوت العذاب .

وفي الليل ، خرج لوط ومعه أهله من المدينة ، وحينما جاء الفجر ، اقتلعت الملائكة قرية سدوم من جذورها ، ثم قلبوها وجعلوا عاليها سافلها . وأمطر الله على أهلها حجارة أهلكتهم جميعاً . وبقيت هذه البلاد عبرة وآية لكل من يمر بها . [القرطبي : تفسير سورة هود] .

* * *

النمرود

أرسل الله نبيه إبراهيم – عليه السلام – ؛ ليدعو الناس إلى الإيمان بالله ، وإلى ترك عبادة الأصنام ، ولكن الناس كانوا يستهزئون بحديثه .

وكان النمروذ ملكاً عظيم السلطان ، فلما علم بدعوة إبراهيم إلى الإيمان بالله ، سأله عن ربه ، فقال إبراهيم : (رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ) ، فقال النمروذ في تكبر وغرور : (أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ) ، ثم أحضر رجلين ، وقال : لو أحييتُ هذا وقتلتُ هذا ؛ فإنني أحيي وأميت .

فقال إبراهيم : (فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ) [البقرة : ٢٥٨] ، فاغتاظ النمروذ و لم يستطع الرد .

ويُحكى أن الله عاقب النمروذ فبعث إليه بعوضة ، دخلت أنفه و لم تخرج ، وظلت مدة طويلة ، فكانوا يضربونه على رأسه ؛ ليرتاح من حركتها داخل دماغه . وهلك النمروذ بهذه الميتة الذليلة ؛ فكان هذا عقاب الله له في الدنيا ، وأعدَّ له عذاباً شديداً في الآخرة . [القرطبي : تفسير سورة البقرة].

* * *

أبو لهب

هو عبد العُزى بن عبد المطلب ، أحد أعمام النبي صلى الله عليه وسلم . كان من زعماء الكفر الذين آذوا المسلمين في مكة ، وكان يسخر كثيراً من النبي صلى الله عليه وسلم . ولما نزل قول الله تعالى : (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) [الشعراء : ٢١٤] ؛ صعد النبي صلى الله عليه وسلم جبل الصفا ، ثم نادى بأعلى صوته ؛ فاجتمع إليه الناس ، فقال : " يا بني عبد المطب ، يا بني فهر ، يا بني لؤي ، أرأيتم بو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الوادي تريد أن تُغيرَ عليكم (تهاجمكم) ، صدقتموني ؟ " . قالوا : نعم ، ما جرَّبنا عليك كذباً قط . فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : " فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد (أي : من ورائي عذاب لمن لا يؤمن) : ، فقال أبو لهب : تبًّا لك ، ألهذا جمعتَنا ؟ [البخاري] .

فأنزل الله سورة المسد يلعن فيها أبا لهب وزوجته أم جميل ، التي كانت تؤذي النبي صلى الله عليه وسلم . قال تعالى : (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ، مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ، سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ ، وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ، فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ) .

فاشتدت عداوة أبي لهب وزوجته للإسلام ، وتزعَّم المشركين الذين عذبوا المؤمنين ، ودبروا لقتل النبي صلى الله عليه وسلم .

وكانت نهايته عقاباً له على ما ارتكب في حياته ؛ فقد أصابه مرض " العَدَسة " ؛ فظهر خُرَاج في جلده ، فكان الناس لا يقتربون منه خوفاً من العدوى ، وظل على مرضه حتى مات ، فتركه الناس ثلاثة أيام دون دفن حتى انتشرت منه رائحة كريهة ، فغسَّله أبناؤه بقذف الماء عليه من بعيد ، ثم أخذوه ووضعوه إلى جانب جدار ، وغطوه بالحجارة . [سيرة ابن هشام] .

* * *

فرعون

تفاخر فرعون وتكبر ، فقال لأهل مصر : (أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي) [الزخرف : ٥١] ؛ فأيدوه .

وتمادى في كبره ، فادَّعى أنه إله ؛ حيث قال لهم : (أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى) [النازعات : ٢٤].

وشاءت إرادة الله أن يتربى موسى – عليه السلام – في قصر فرعون ، فلما أوحى الله إلى موسى جاء يدعو فرعون إلى عبادة الله الواحد ، وقدَّم لهم معجزتين تدلان على صدقه ؛ فألقى عصاه فصارت حية تتحرك ، وأخرج يده من جيبه ، فإذا هي شديدة البياض من غير مرض . وهنا دُهش فرعون من موسى ، ولكنه اتهمه بالسحر والجنون ، وأحضر أمهر السحرة ليتحدَّوْه ؛ فلما اجتمع السحرة في اليوم المحدد ، تأكدوا أن موسى مؤيَّد من ربه ، وليس ساحراً ، فآمنوا بالله الواحد ، فاغتاظ فرعون ، وقال لهم . (آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ) [الشعراء : ٤٩] . وأدرك فرعون الخطر ؛ فأراد أن يقضي على موسى لأنه صرف الناس عن عبادته !!

وأمر الله موسى أن يخرج بقومه من البلاد ، فعلم فرعون بخبرهم فجمع جيشه للقضاء عليهم ، وخرج يتعقبهم .

ووصل موسى ومن معه إلى شاطئ البحر ، قال تعالى : (فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ، قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ) [الشعراء : ٦١ – ٦٢] . فأوحى الله إليه أن يضرب بعصاه البحر ؛ فأصبح الطريق ممهداً ؛ فسار موسى ومن معه حتى وصلوا إلى الشاطئ الآخر . وتبعهم فرعون وجنوده ، فأغرقهم الله – عز وجل – في البحر . وقال فرعون قبل أن يغرق : (آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ) [يونس : ٩٠] ، لكن لم ينفعه إيمانه في هذا الوقت ، وهلك مع الهالكين . [القرطبي : تفسير سورتي يونس والشعراء] .

* * *

قارون

كان في قوم موسى – عليه السلام – رجل اسمه قارون ، رزقه الله ثروة كبيرة امتلأت بها الخزائن ، حتى كانت الجماعة من الرجال الأقوياء لا يستطيعون حمل مفاتيح خزائنه ، ولكن قارون لم يقابل نعم الله عليه بالحمد والشكر ، بل قابلها بالكبر والتفاخر .

وذات يوم ، نصحه بعض الصالحين بشكر الله على نعمه والتصدق من ماله على الفقراء ، ولكنه عاند واستكبر ، وادَّعى أنه هو وحده صاحب هذا الخير الوفير ، وأنه ليس لأحد فضل عليه (قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي) [القصص : ٧٨] .

وفي يوم من الأيام ، ارتدى قارون أحسن الثياب ، وسار يتباهى في موكب ضخم ، في أنحاء المدينة ، فنظر إليه بعض الناس ، وتمنوا أن يكونوا مكانه ؛ يمتلكون مثلما يمتلك ؛ فذكَّرهم المؤمنون بالثواب العظيم الذي أعده الله – عز وجل – لعباده الطائعين .

وتكبَّر قارون ، و لم يشكر الله على نعمه وفضله ؛ فأمر الله الأرض فانشقت وابتلعت قصور قارون وخزائنه . . بل وابتلعت قارون نفسه ؛ ليلقى جزاء تكبره وبخله بما أعطاه الله . [القرطبي : تفسير سورة القصص] .

* * *

أول المتكبرين

كان إبليس – لعنه الله – أول المتكبرين ؛ فعندما خلق الله آدم – عليه السلام – أمر الملائكة أن يسجدوا له ، فأطاعوه وسجدوا لآدم ، أما إبليس فرفض واستكبر ، فقال تعالى : (يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ، قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ) [صّ : ٧٥ – ٧٦] .

فعصى إبليس أمر الله ، وظن أنه أفضل من آدم الذي خُلِق من طين ، فاستحق الطرد من الجنة جزاء تكبره على أمر الله .

* * *

حقيقة الكبر

الكبر والتكبر والاستكبار : كلمات متقاربة المعنى . والكِبر هو الإعجاب بالنفس ؛ حيث يرى الإنسان نفسه أعظم من غيره .

وأشد أنواع الكبر : التكبر على الله – سبحانه وتعالى – وذلك حين لا يقبل المتكبر الحق ، وينصرف عن توحيد الله ، ولا يطيع أوامره – سبحانه – ولا يتجنب نواهيه .

* * *

المتكبر الحقيقي

قال تعالى : (هُوَ اللَّهُ الَّذي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ) [الحشر : ٢٣] . وقال – سبحانه – في الحديث القدسي : " الكبرياء ردائي ، والعظمة إزاري ، فمن نازعني واحداً منهما قذفتُه في النار " [أبو داود] .

والمتكبر هنا يعني الكبير ؛ فالله هو المتكبر الحقيقي ، فلا ينبغي لأحد من خلقه أن يتكبر . والتكبر نوعان ؛ أولهما : أن تكون الأفعال أحسن من أفعال الغير ؛ لذلك وصف الله – تعالى – ذاته بالمتكبر . أما النوع الثاني : أن يتظاهر الإنسان بما ليس فيه أمام الغير ؛ ليبدو أكبر وأعظم منهم ، وهذا هو المذموم . فالتكبر في صفات الله مدح ، وفي صفات المخلوقين ذم .

* * *

المؤمن لا يتكبر

مدح الله المؤمنين ، فكان من الصفات التي مدحهم بها أنهم لا يستكبرون ، فقال تعالى : (إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآياتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ) [السجدة : ١٥] . وقال صلى الله عليه وسلم : " ألا أخبركم بأهل الجنة ؟ كل ضعيف متضاعف لو أقسم على الله لأبره . ألا أخبركم بأهل النار ؟ كل عُتُل جَوَّاظ مستكبر " [البخاري] . والمقصود بالضعيف : المتواضع . والعُتُل : الغليظ . والجوَّاظ : الضخم المختال في مشيته .

وفي الختام ، ندعو الله أن يجعلنا متواضعين له ، ومتواضعين لعباده . ونعوذ بالله من أن يجعلنا من المتكبرين الذين يتكبرون على الناس ، أو يستكبرون عن عبادة الله .

أشبال التوحيد

الحمد لله رب العالمين .. والصلاة والسلام على إمام المربين .. المبعوث رحمة للعالمين .. سيدنا محمد .. وعلى اله وصحبه أجمعين .. أما بعد :

فلم يعد يخفى على كل ذي بصيرة ما تبذله أنظمة الكفر العالمي وأذنابهم من جهود ضخمة في سبيل إفساد أجيال المسلمين المتعاقبة .. وما ذلك إلا لخوفهم من أن تتصل هذه الأجيال الناشئة بأسلافهم ممن ملكوا هذه الدنيا بأيديهم بعد أن أخرجوها من قلوبهم ..

وإيمانا منا نحن إخوانكم في منبر التوحيد والجهاد أن تنشئة هذه الأجيال على عقيدة الإسلام وأخلاقه ؛ على هذا النبع الصافي ، هو أشد على الكفار من رميهم بالنبل .. فقد شرعنا مؤخرا بإنشاء هذا القسم الهام .. والذي نسأل الله أن يكون عونا لكافة إخواننا واخواتنا في تنشئة هذا الجيل الفريد..

فإلى أشبال التوحيد .. نهدي هذه الكلمات ..

والله من وراء القصد.

منبر التوحيد والجهاد

* * *

http://www.tawhed.ws
http://www.alsunnah.info
http://www.abu-qatada.com